رَجَعوا؟ رَجَعوا؟ قلت: نعم. فعاد الرأس إلى البدن، فقلتُ: واللهِ لا رافقتُكَ بعد اليوم. وقد ذكرنا الحكاية في ترجمة الأوزاعي.

وفيها تُوفِّي

محمد بن علي بن يوسف(١)

أبو عبد الله، الطَّرَسوسي، ويُعرف بابن السَّنَّاط، إمام جامع دمشق، كان قارئاً للقرآن، ملازماً على الصلاة، حافظاً، سمع الكثير، وتوفي بدمشق، حدَّث عن محمد ابن أبي نصر وغيره، وروى عنه الحسن بن أحمد الكرماني وغيره، وكان صدوقاً صالحاً].

السنة السابعة والخمسون وأربع مئة

فيها في المُحرَّم حضر من عند ألب أرسلان مَنْ أخبر عنه أنه سار من هَمَذان إلى أصبهان في رابع عشر ذي الحجة، فكانت مدة إقامته بها أربعين يوماً، وأن فضلويه وصل إليه في هَمَذان فأكرمه وخلع عليه الخِلَع الجليلة وعلى كل من ورد من صحبته، وأعطاه الخيم والخركاوات والخيل بمراكب الذهب والصاغات وشيئاً كثيراً، وأمره أن يضرب الطبول على بابه في أوقات الصلوات، ورتب جماعة من العسكر للمسير معه إلى شيراز، وصرف من بها من أصحاب أخيه قاروت بك إلى أن يلحق بهم السلطان، وفي خامسه سار هزارسب مع بُرْشُق الحاجب مظهراً لما(٢) قصد ألب أرسلان، وقد بلغه مسيرُه إلى شيراز، واستصحب معه حملاً.

وفي المُحرَّم وصل ألب أرسلان إلى شيراز، وكان أخوه قاروت بك بها، فعلم، فأنفذ ثقله وحرمه وأمواله نحو كرمان، وتحصَّن بقلعة على جانب البحر يقال لها: البئر، فثار به بعض عسكره، واستأمنوا إلى ألب أرسلان فأحسن إليهم، وبعث إلى طريق كرمان لأجل رحيل قاروت بك، فأخذه وكان على خمسة آلاف جمل وبغل،

(١) تاريخ دمشق ٥٤/ ٤٠١_٤٠٢ .

(٢) تحرفت في الأصلين (خ) و(ف) إلى: فلما.

وحمل إلى ألب أرسلان، فسُرَّ به سروراً عظيماً، وبعث خلف نظام الملك وكان بأصبهان، فخرج منها مُستهلَّ صفر، ومعه مسلم بن قريش في الخدمة، وورد كتابٌ من هَمَذان فيه أنَّ ألب أرسلان سقط من الفرس بين أصبهان وشيراز، فوقع في نفسه أن ذلك مقابلة فعله بأهل هَمَذان، فكتب إلى أبي محمد الدِّهِستاني الناظر فيها برفع الضرائب والمكوس، وأن يُحسن إلى أهل البلد، ويردَّ ما أخذه منهم، فأخفى الكتاب وقال: إذا بطلت المكوس، ورددتُ ما أخذتُ، فأيُّ ارتفاع يبقى في يدي أحمله إلى الخزانة وأصرفه في مصالح السلطان؟ فطرقته الخوانيق في حلقه فمات، ووجد الكتاب في تركته، فقال أهلُ هَمَذان: إنَّ هذا الذي لحقه عقوبةٌ له على سوء نيته فينا.

وورد الخبرُ أن عطية بن الزَّوقلية صاحب حلب استدنى بُرَّجان(١) التركماني ومن معه من الغُزِّ، وكانوا نحو خمس مئة غلام، وقرَّر لهم في كل شهر أحدَ عشر ألف دينار، وأنزلهم بالحاضر ظاهر حلب، وكانوا في الثغور متردِّدين، وبما يأخذونه من الروم عن كفِّ الأذية عن أعمالهم متقوتين، وفعل عطية ذلك لمَّا تواتر من قصد محمود ابن أخيه، ومظافرة بني كلاب لهم، ثم ثار أحداثُ حلب عليهم، وقتلوا منهم في البلد جماعةً بأمر عطية؛ لأنه خاف منهم، ومضى بُرَّجان ومَنْ سَلِمَ معهم إلى محمود بن شبل الدولة خصم عطية.

وفيها ورد كتاب ملك الروم إلى الوزير ابن جَهير، فكان منه: لقد كثُر تعجُّبُنا ـ أطالَ اللهُ بقاءَ الوزير الخطير والبشير، حسن الأثير ـ كيف رأى استعمال الصمت وإهمال المكاتبة طول هذا الزمان، وما تحرَّك لتجديد العهد بنا بالمناجاة والمخاطبة مع ما هو متجمِّلٌ به من الأدب الزائد، والعقل الراجح الفائض، والحِجا المستوثق الطائل، لكنا وإن كان الوزير ـ أدام اللهُ كفايتَه ـ لما قد احتفَتْه من المهمات، ونِيطَ به من التدبُّرات، لم يتمكن ممَّا ذكرناه، فنحن لم نتمكَّن من الصبر هذه المدة عن مكاتبته، بل أصدرنا هذا الكتاب مستعلمين خبرَه وجريَ الأمور بساحته، وذكر كلاماً بمعناه، وبعث الوزيرُ بالكتاب وكتاب آخر إلى ألب أرسلان يسير بالهدية وتقريرها والجواب عنها.

---

(١) في (خ): أسند بارجان، والمثبت من (ف).

وفي يوم الخميس لسبعٍ بَقينَ من رجب حدَّث أبو يعلى بن الفراء في جامع المنصور بأحاديث لا أصل لها، وكان هناك قوم من المعتزلة، فأنكروا ذلك، واستبُّوا، وخرجوا إلى الضرب بالآجُرِّ، واجتمع من الغد الحنابلة إلى دار الخليفة، وشكوا المعتزلة، فخرج جواب الخليفة بالإنكار لمذهب المعتزلة.

وفي رمضان قدمت قافلة الحاجِّ من خراسان، وكان نظامُ الملك أحبَّ أن تنفتح طريقُ مكة، وشاور العميدَ أبا سعيد لمَّا ولَّاه بغداد، وفسح له في إطلاق ما يحتاج إليه الخفراء بالغاً ما بلغ، واجتمع العميد في بيت النُّوبة مع الوزير دفعاتٍ بهذا السبب، واستقرَّ أن يسير بالحاجِّ ابن حمزة الهاشمي، وورد مع الحاجِّ العلويُّ المرتضى، كان نقيب العلويين بالري في أيام طُغْرُلْبَك، وتبعه خلقٌ كثير، وتلاه علويٌّ آخرُ ممَّا وراء النهر ومعه عدد وافر، وأحضر ابنُ حمزة الهاشمي نيفاً وستين خفيراً من القبائل، فخلع عليهم العميدُ ثيابَ القطن المُصبَّغات، فكانوا لها كارهين، وحضر جماعةٌ من بني خفاجة، وأكْرَوا الجمل بأربعين ديناراً إلى مكة ذاهباً وراجعاً، وعلم المرتضى بأن الخفراءَ غيرُ راضين، فأحضر جماعةً من العرب، وقرَّر الخُفارة معهم، وأن يسير وحده، وعلم العميدُ فخاف على الحاجِّ، فحصل خمسة آلاف دينار وأنفقها فيهم، واستحلفهم على حفظ الحاجِّ، فحلفوا يميناً ظهر معها سوءُ نيَّاتهم، فشهد عليهم الشهود، فكتب الظاهر أبو الغنائم نقيبُ الطالبيين إلى الخليفة بأنَّ أمر الحجِّ مردودٌ إليَّ، ومتى تولَّاه غيري كان عزلاً لي، وأمراء مكة علويون، ومتى خرج ابن حمزة لم يُمكَّنوا من رعاية الحاج، فقال الخليفة: الأمرُ إليك في هذا. فندب أخاه أبا الحسين، وخرج الناسُ، وخرج الكامل نقيبُ العباسيين والسهيلية القَهْرمانة في دار الخليفة، وساروا، فغدر الخُفراء بهم، وأخذوا المالَ والجِمالَ والزادَ، واتفقوا على نهبهم، وكانوا قد ساروا عن الكوفة أربعَ مراحل، فعادوا إلى بغداد ثاني ذي القعدة، وبطل الحجُّ.

وفي يوم الخميس منتصف ذي الحجة عاد المرتضى العلويُّ والحاجُّ الذين كانوا معه من فَيْد، فإنَّ الخُفراء غدروا بهم، وجَبَوا منهم ضِعفَ ما كان العميد أعطاهم، واختلفت آراؤهم، فرجعوا وعاد العلويون إلى بلادهم.

وفيها بعث الخليفةُ خادمين وحاجباً إلى أصبهان يقبروا زوجته أرسلان خاتون.

وفي شوال عاد بدر بن مهلهل من نيسابور، وكان ألب أرسلان قد استدعاه ليحضر عرس ولده ملك شاه على ابنة ملك الترك طنغاج، وملَّكه من وراء النهر، وتزوَّج السلطان ببنت قدرخان التي كانت زوجة محمود بن مسعود بن سُبُكْتِكين بمرو، وأنفذها إلى بَلْخ، وكان قد تزوَّج عند دخوله الري زوجة طُغْرُلْبَك واسمها عكَّة.

وفيها نزل عطية من قلعة حلب وسلَّمها إلى محمود ابن أخيه من زيادة الغلاء والحصار، وأنَّ ابن خاقان والغُزَّ تولَّوا الحرب، فلم يثبُتْ عطيةُ وأهلُ حلب لهم، وشرط أهلُ حلب على محمود ألَّا يُمكِّنَ الغُزَّ من الدخول إليهم، فأجابهم وأعطاهم المعرَّة، فنزلها خاقان والغُزُّ، ونزل عطية على بني كلاب. وقيل: إن ابن خاقان سار بعسكره إلى العراق إشفاقاً من أحداث حلب.

ووقع بين الكلبيين وبين قائد دمشق الأرمني خلافٌ، وأخرج معهم عسكراً لدفعهم، فاستظهر الكلبيُّون، وقتلوا جماعةً منهم، وأسروا سبعة عشر أميراً وقائداً باعوهم بعد أن نكَّلوا بهم وعذَّبوهم، وقرَّر عليهم البدويُّ الذي أسره عشرةَ آلاف دينار، أخذ خطَّه بها، فاستشار زوجتَه، فقالت: إن أطلقتَه أعطاك أضعافَ ما تَقرَّر، وفعلت الجميل وراءه، وإن أخذتَ المال شاطرَتْكَ العشيرةُ ولم تظفر بطائل، فأطلقه، وأعاد الخطَّ إليه، وحمله إلى منزله بدمشق، فخلع عليه وأكرمه، وأعطاه ألفي دينار، وقال: هذه لك عليَّ كلَّ سنة. فأخذها وانصرف، وزاد تبسُّطُ الكلبيين في السواد، وأخذوا الغَلَّات ونهبوا، فخرب الشام، ودخل حصن الدولة بن منزو قائد الرملة إلى طرابلس وملكها، وقبض على بني أبي الفتح المتغلبين عليها، ولمَّا خرج إليها قصد إليه ابن عمار وقاضيها، وكان في حيِّز السلطان، فأشار إلى بني أبي الفتح أن يخرج أحدُهم معه للقاء ابن منزو، ففعلوا، فأولى ابنُ منزو ابنَ أبي الفتح الجميل ليخدع بذلك أخوتَه، فبان له ذلك، وأنَّ القاضي خدعه حتى حصله عنده، وكتب إلى إخوته بذلك، وراسل أبو الفتح بما تطيبُ به نفوسُهم، وسامهم الخروج إليه، فامتنعوا، وجدُّوا في الحرب، وكان ابنُ عمار قد أصلح جماعةً من أحداث البلد ومقاتلته، فاستأمن منهم ثمانيةٌ وعشرون نفساً، فضعف أمر بني أبي الفتح، واختلف أهل البلد، ففتحوا الأبواب، ونادوا بشعار

المستنصر، فقيَّدَ ابنُ منزو بني أبي الفتح، وبعث بهم إلى صور، وعاملهم بالمكروه، وطلب المالَ الكثير، وقسط على أهل البلد مئة ألف دينار جزاءً عن طاعتهم لبني أبي الفتح، وكونهم خلعوا صاحب مصر، ومنع الذين استأمنوا إليه من سُكنى البلد، وأمرهم بالانفساح في الشام، فطلبوا منه العطايا والخِلَع، فوعدهم بالجميع، وقبض عليهم ليلاً وصلبهم، وهم الذين كانوا يعاونون بني أبي الفتح، فاستقام أمرُ طرابلس.

وفي هذا الوقت ورد الخبرُ أنَّ المستنصرَ صاحبَ مصر ضرب ابنَ أبي كُدينة أحدَ الوزراء المصريين والقضاة المستورين، وعاقبه ودهقه في المعصار حتى كاد يموت، فمنعَتْه والدتُه عنه، وأخذَتْه منه، وقالت: ما تريد من هذا الرجل؟ قال: المال. قالت: ما هذا طريقه، وربما هلك في تضاعيف ذلك، وأنا أقرِّر لك عليه ما تريده منه. فغضب وخرج من القصر ماشياً إلى الجامع الأنور، وهو أول جامع بُني في القاهرة، وعرف وجوهُ الدولة فانزعجوا، وجاؤوا إليه وقالوا: ما هذا الفعل الشنيع؟ فقال: أنا مغلوبٌ على أمري، ومدفوعٌ عن أغراضي، وقد تركتُ الأمر لمن غلبني عليه، وعزمتُ على المُقام بهذا المكان والانقطاع فيه إلى الله تعالى. فقالوا: يا مولانا، اللهَ اللهَ فينا وفيك، ومتى لم ترجعِ الساعةَ إلى القصر نُهِبَ ونُهِبَ البلدُ جميعُه، وتفاقم الأمر تفاقماً لا يمكن استدراكُه، ورفقوا به حتى عاد إلى القصر.

وفي يوم الأربعاء حادي عشر ذي الحجة اقترن زُحل والمريخ في برج السنبلة حادي عشر ذي الحجة، فحكم المنجِّمون بأن يكون يوم العيد فتنةً عظيمةً، فغلب ذلك على العقول، حتى صار كالحقِّ الذي لا شبهةَ فيه، وتأخَّر خلقٌ عن صلاة العيد، وأنَّ الفتنة تكون في يوم العيد وغدِه في دار الخلافة(١)، فخرج الخليفةُ ليلاً من داره إلى الحريم الطاهري على وجَلٍ(٢)، وامتنع العميد من التصرف [وانتظر الناس ذلك العيد وغدَه] ولم يجْرِ غيرُ الخير، وعاد الخليفة إلى داره في الليل.

وفي ذي الحجة بُدىء بعمل [مدرسة للشافعية على دجلة بنهر مُعلًّى، بأمر نظام الملك، وهي التي تُسمَّى] المدرسة النظامية، ونقض لبنائها في الدور التي كانت للناس

(١) في (م) و(م١): دار الخليفة.

(٢) في (خ): وجد، وفي (ف): وجه، والمثبت من (م) و(م١).

بمشرعة الزوايا والفُرْضَة وباب الشعير ودرب الزعفراني، وتوفي أبو منصور بن بكران حاجب الخليفة، وتولى الحجابة مكانَه أبو عبد الله المردوسي.

وفيها تُوفِّي

سعيد بن أحمد(١)

ابن محمد [بن نُعيم](٢) بن إشكاب [أبو عثمان] الصوفي [ويُعرف بالعيَّار؛ لأنه كان في أول أمره يسلك مسلك الشُّطَّار، ثم رجع إلى الطريق، وهو أحد الجواليق في طلب الحديث، ثم رجع إلى غزنة فمات بها](٣) واتفقوا على فضله وثقته(٤).

[وفيها تُوفِّي]

محمد بن منصور(٥)

أبو نصر، عميد الملك الكُنْدُري(٦)، وزير السلطان طُغْرُلْبَك، وكُنْدُر: قرية من طُرَيثيث. [وبقزوين قريةٌ يقال لها: كُنْدُر، منها أبو غانم وأبو الحسين] كان فاضلاً مدبراً حازماً [وقد ذكرنا طرفاً من أخباره] وكان طُغْرُلْبَك قد بعثه ليخطب له امرأةً فتزوَّجها هو، فخصاه، ثم أقرَّه على خدمته، فاستولى عليه، وكان يَشْعُر، ومن شعره: [من البسيط]

الموتُ مُرٌّ ولكنِّي إذا ظَمِئَتْ ... نفسي إلى العزِّ تستحلي لمشربهِ
رياسةٌ باضَ في رأسي وساوِسُها ... تدورُ فيه وأخشى أن تدورَ بهِ

وقال عند قتله: [من البسيط]

إنْ كان بالناسِ ضِيقٌ عن مزاحمتي ... فالموتُ قد وسَّعَ الدنيا على الناسِ
قضيتُ والشامتُ المغرورُ يتبعُني ... إن المنيةَ كأسٌ كلُّنا حاسي

---

(١) تاريخ دمشق ٢١/ ٣.

(٢) ما بين حاصرتين من تاريخ دمشق، ومن تاريخ الإسلام ١٠/ ٩٠.

(٣) جاء عوضاً عن هذه الزيادة في (خ) و(ف): مات بغزنة.

(٤) في (ف) و(م) و(م١): فضله وصدقه.

(٥) تنظر مصادر ترجمته في السير ١٨/ ١١٣.

(٦) تحرفت في (م) و(م١) إلى: الكثيري.

ذِكْرُ مقتله:

قد ذكرنا أنه لمَّا مات السلطان خطب لابن أخيه سليمان، وفرَّق الأموال في العساكر، وكتب إلى ألب أرسلان كتاباً أرعد فيه وأبرق، بناءً على أنَّ ألب أرسلان يقنع بخراسان، فلم يقنَع، وسار من نيسابور يريد الري، ولمَّا رأى عميد الملك الغلبة خطب لألب أرسلان، وجاء إلى الري وملكها، ولم يظهر لعميد الملك ما في قلبه، وكان ملازماً لخدمته.

وقال محمد بن هلال الصابىء: حدثني بعض أصحاب عميد الملك بخبره منذ يوم قبض عليه إلى حين قُتِل ـ وكان في خدمته ـ قال: لمَّا كان يوم السبت السابع عشر من المُحرَّم أمر ألب أرسلان بإخراجه من حضرته، وخلع على وزيره نظام الملك من ساعته، وجاء عميدُ الملك إلى داره، فسأله أبو البدر كاتِبُه عن حاله، فقال: كنت جالساً عنده على عادتي في مجلس الشرب، فخاطبه حاجبٌ في تركمانيٍّ ممَّن أُسِر من أصحاب قُتُلْمِش. قال: ومَنْ ذاك الكلب حتى تخاطبني فيه؟ امْضِ يا غلام فأتِني برأسه. فقمتُ وقبَّلتُ الأرضَ وقلت: ما يَحسُنُ في مقابلةِ الحاجبِ ذهابُ نفسِ مَنْ خاطب لأجله. فاغتاظ، وقال: أنت قد تعوَّدتَ أن يكون المِلْكُ من قِبَلِكَ، والأمرُ والنهيُ لك، وما عندي شيء من ذلك، فارجع عما عهِدْتَه، واعدِلْ عما أَلِفْتَه، وتصوَّر أنني قصدتُ إيحاش الحاجب منه، وكان قبل ذلك قد خلع على سرخاب قَلنسوةَ ذهب وقَباءَ نسيج كانا للسلطان، فقلت: أنتَ أمرُكَ من أمر الباري سبحانه، لا يُسألُ عمَّا يفعل، وإلَّا فمَنْ سرخاب حتى تعطيه قَلنسوةَ السلطان وقَباءه. فازداد غيظاً، ودخل سرخاب وجلس وركبتُه على ركبتي، فضايقني، وقد كان من قبلُ يقف بين يديَّ ويُقبِّلُ الأرضَ، فعزَّ عليَّ ما فعل بي، ثم التفتَ السلطانُ إليَّ وقال: ضيَّعتَ المالَ عليَّ ومزَّقتَه. فقلت: يا سلطان، لا تفعَلْ هذا، فلولا ما فعلتُه من بذلِ المال وإعطاءِ الغلمان ما حصل لكَ مالٌ، ولا قلعةٌ ولا الري، ثم إنني قد أخلفتُ من حاشية السلطان عِوَضَه. فقال: كذبتَ وما قصدتَ هذا، وأنت بمنزلة البازي الذي يصيد، وعنده أنَّ الصيد له، فيجيء صاحبُه فيأخذُه منه، وأنت ضيَّعتَ المالَ طمعاً في الملك أن يصحَّ لك، ويجتمعَ الغلمان عليك، وكيف تصوَّرتَ وأنت تدَّعي الحكمةَ وفصل الخطاب، وقراءةَ الكتب ودراسةَ

الآداب، أن يموت عمِّي وأنا بنيسابور في مئة ألف فارس، وأخي قاروت بك بفارس في عساكره وقُتُلْمِش بإزائك في خمسين ألفاً، ويمكنك الخلاص منا، والاستبداد بالملك دوننا؟ ولكن هذا هو الجهل الصريح[1]. ثم غضب، وكان منتظراً السلاحَ ليقتلني، وأنا أُجيبه بما أستوفيه، فأمر بإخراجي وإبعادي عنه، وأراد الفتك بي، ثم قام فدخل حجرته، وردَّ الأمورَ إلى نظام الملك، وتأخرتُ إلى بعض الأماكن في الدار، فخرج وقال: أين أبو نصر؟ فقمتُ وقبَّلتُ الأرضَ بين يديه، وتذللتُ وتضرَّعتُ إليه، فقال: ما لك قد خُدِشْتَ؟ أردتَ أن تكون ملكاً بهذا القلب! فقلت: وكيف لا أجزع من سلطان مثلك، ولئِنْ فزِعْتُ منك أن تعاقبني، فكذا أرجو أن تعفو عني وتسامحني. فقال: امضِ إلى دارك، واعلَمْ أنني لم أخرُجْ إليك بما في قلبي وعندي ما تخافه. فقبَّلتُ الأرض، وخرجتُ إلى داري، فقيل لي: باكِرْ خدمتَه ولا تُرِه انقباضاً، ولا أنك مستوحشٌ منه. فباكرتُ إلى الخدمة، فلمَّا وصلتُ إلى باب الحجرة لم يؤذَنْ لي، فقمتُ إلى نظام الملك فهنيتُه وخدمتُه بخمس مئة دينار، فوعدني بما طيَّب به قلبي. قال: وخرج من الدار، فتبعه أكثر العسكر، وبلغ السلطان فقيل له: إذا كانت طاعةُ العسكر له هذه الطاعةَ مع غضبك عليه وإهانتك له، فكيف إذا كان في حالة الرضا، وهو معك في البلد الذي قد ملك قلوب أهلِه بالمال وغيره؟ وفي داره ثلاث مئة غلام، وهو في دارك يشرب معك دائماً، وربما لاحَتْ له فرصةٌ فيك، فأرسل إليه يقول: هؤلاء الغلمان الذين عندك لا حاجة لك إليهم، فأرسِلْهم إلينا. فأرسلهم إلا أربعة، فإنه سأل أن يبقَوا عنده، ففرَّق الغلمان في الحُجَّاب، ولم يشعر إلا بعميد خراسان قد هجم عليه ومعه خمسون رجلاً، فتوكل به، وبعث عميدُ الملك إلى نظام الملك، وسأله الاجتماع به، فجاءه نظام الملك، فسأله أن يخاطب السلطانَ فيه، فوعده وطيَّب قلبه، ثم بعث إليه السلطان يقول: أثبِتْ جميع مالك ونفِّذه إلى الخزائن. فأخرجَ جميعَ ما كان في داره من الثياب والمصاغ، ولم يجد عنده سوى ألف دينار وسبعين ألف درهم ـ قيل: كان قدور المطبخ ـ وتقدَّم إليه بالمسير إلى مَروالرُّوذ إلى أن يمضيَ السلطانُ إلى الروم إلى الغزاة، ثم يعودَ فيُحضِرَه إلى خدمته. وكان له صبيٌّ تركيٌّ قد تبنَّاه، ويحبُّه محبةً عظيمةً، بحيث

(١) في (ف): الصراح.

إنه لا يفارقه، فاتَّفق أنه مات، فانزعج وقال: قد ولَّتِ السعادةُ، وانقضتِ الدولةُ. وأنفذ إليه السلطانُ كتابه الذي دافعه فيه عن المجيءِ إلى الري، والمُقامِ بنيسابور، والتصريحِ بالمحاربة، ثم أتبعه بالكتاب الذي بخطِّه وهو يرعد فيه ويبرق، وقال: أما هذه مكاتبتُكَ إليَّ وهي خلافُ ما ادَّعيتَه من كونِكَ بذلْتَ المال في خدمتي. فقال: عفوُ السلطان أعظمُ من ذنبي. قال صاحبه: وخرج إلى مَروِالرُّوذ في يوم الثلاثاء خامس صفر، وخرجتُ معه، وحمل [معه](١) زوجته وابنته وجواريه والأربع غلمان، وكتب معه كتاباً إلى مَروِالرُّوذ، فيه: الشيخُ الجليلُ عميدُ الملك يخدُمُ خدمةً مرضية، ويُجري عليه في كل شهر مئة دينار، فخرج وهو طيِّب النفس بهذا الكتاب، منظورٌ أنه يعود إلى ما كان فيه، ووصل إلى نيسابور، ودخل إلى خاتون زوجة ألب أرسلان أم خفجاق ولدِه، وخدمه، وأخذ ولدَها فأجلسه في حُجرِه، وتعلَّق بذيله وذيلها، واستجار بها وسألها المكاتبة إلى السلطان في العفو عنه، وحمل إليه خمسَ مئة دينار وفرساً، فوعدته بالجميل، وكتبت له إلى مروِالرُّوذ وهي داخلة في إقطاعها بألف دينار، وكتبت له إلى السلطان كتاباً، وأنه قد استجار بها وبولدها، ومضى إلى مروِالرُّوذ فنزل بدار رئيسِها، ثم وصل إلينا الخبرُ بأن محمود بن أبي علي المَنيعي رئيس نيسابور ورد إلى مكانٍ بينه وبين مروِالرُّوذ سبعُ فراسخ، وجاء كتابُه إلى أخيه عبد الرزاق النائب عنه في البلد أنَّ السلطان كتب إليه مع غلام تركي يأمره بقتل عميد الملك(٢)، وأنه أنفذ الكتابَ والغلامَ إليه ليقف عليه، ويُمكِّن الغلامَ مما جاء فيه، وأنه ما تأخَّر إلا حياءً من أن يجري ذلك على يده. قال: فانزعج عبد الرزاق ـ وكانت بين عميد الملك وبين المَنيعي مودةٌ مؤكَّدةٌ، وصداقةٌ شديدةٌ ـ وحضر الغلامُ عند عميد الملك، وأمره بالصعود إلى القلعة، وأنَّ السلطان إنما أنفذه لهذا، فصعد وحُرَمه إليها، وكان عبد الرزاق خطيبَ البلد متقدِّمَه، وكان ذلك في يوم جمعة، فصَعِد المنبر ولم يدْرِ ما يقول، فذكر الكلمتين ونزل، واطَّلعتُ أنا على الخبر، فصَعِدتُ إليه وعرَّفتُه وقلتُ: انظُرْ هل من حيلةٍ؟ فأبلس وجَفَّ لسانه، وقال: الحيلةُ أن تجمع بيني وبين عبد الرزاق. فنزلتُ إليه وقلتُ له: قد

(١) هذه الزيادة من (ف).

(٢) في (ف): عميد الدولة.

علمتُ ما بينكم وبينه، وقد علم بالخبر، ويسألك الاجتماع ليوصيَ إليك بأهله وحرمه. فقال: ما لي قلبٌ أشاهده. فلم أزَلْ به حتى أصعدتُه إليه، فتعلَّق بذيله وقال: ما أعرف خلاصي إلا منكَ. فقال: وأيُّ حيلةٍ لي؟ قال: تكتب إلى أخيك بأنني لا أُقدِمُ على هذا الأمر حتى تحضر، فإذا حضر قلتَ له: هذا أمر عظيم، ما ينبغي أن تُقدِمَ عليه بأول كتاب، ولعلَّ السلطان كان سكرانَ، والرجل مريض، وربما قضى نحْبَه، وكُفيَ السلطانُ إثمَه، وأكتب أنا ورقةً أُرقِّقه فيها. فقال: سمعاً وطاعة. ونزل من القلعة، وكتب إلى أخيه محمود كتاباً، فجاء إليه واجتمعا، وعرَّفه ما قال عميد الملك، وقال: علينا الحقوق. فقال: سمعاً وطاعة. وكتب إلى السلطان يبذل له الأموال العظيمة، ويخضع ويَذِلُّ، وبعث محمود بالكتابين، ووهب عميدُ العراق الغلامَ الوارد مالاً، فتوقَّف إلى حين يجيء الجواب، وسأل عميدُ الملك عبدَ الرزاق أن يوقفه على الكتاب، فبعث به إليه، ومضمونه بأننا أنفَذْنا الشيخَ أبا نصر إلى مجلسه[1]، وأبقينا على نفسه؛ تصوُّراً منا أنَّ فساده منحسم، وأذاه منقطع، وأنه يشغله خوفُه على مُهجتِه عن سوء فعله وطريقته، وما نراه إلا ازداد عتواً وفساداً، وأنَّ عقاربَه تدِبُّ إلينا، وقد اجتمعت آراءُ محتشمي دار الخلافة وآراءُ دولتنا على أنَّ الصلاحَ في الراحة منه، فيُخنَقُ بسلسلة، ويُعلَّق على باب القلعة سبعةَ أيام، فلمَّا قرأه يئس من الحياة، وأقمنا مدةً، فجاء غلامان من غلمان السلطان ومعهما إلى محمود كتابٌ يُنكر عليه إقدامَه على المخالفة، ويؤمَرُ بقتله وحَمْلِ رأسِه إليه، وصَعِد الغلامان إليه، فقام إليهما، وسلَّم عليهما، وقال: في أيِّ شيء جئتما؟ فقالا: قُمْ وصَلِّ ركعتين، وتُبْ إلى الله تعالى مما أسلفتَ. فقال: أدخُلُ وأُودِّعُ أهلي. فقالا: ادخُلْ. فدخل، وارتفع الصُّراخُ من زوجته وابنته وجواريه، وكشَفْنَ رؤسهُنَّ، وحثَيْنَ التراب عليها، فدخلا عليه وقالا: اخرُجْ. فقال: خُذا بيدي فقد منعني هؤلاء النساء من الخروج. فأخرَجاه وأغلَقا الباب، وخرج إلى مسجد هناك، ومشى حافياً، وخلع فَرَجية سَمُّورٍ[2] كانت عليه، فأعطاهما إيَّاها،

(١) في (ف): محبسه.

(٢) السَّمُّور: دابة معروفة تكون ببلاد الروس وراء بلاد الترك، تشبه النِّمس، ومنها أسود لامعٌ وأشقر، يُتَّخذ من جلدها فِراء مُثمِنة، أي: غالية الأثمان. تاج العروس (سمر).

ومزَّق قميصَه، وأخذوا عمامتَه، وجاؤوا بسارقة[١] قُطِعَتْ من سُرادق، فقال: ما أنا بعيَّارٍ ولا لِصٍّ فأُخنَق، والسيف أروَحُ لي، وهو أمحى للذنوب، ومن قُتِلَ به فهو شهيد. فشدُّوا عينيه بخرقة من طرف كمِّه وضربوا رأسه فطار، فأخذوا رأسه فتركوه في مِخْلاةٍ[٢]، وحملوه إلى السلطان، وسألت أختُه أن تُسلَّم إليها جُثَّته فسُلِّمتْ إليها، فحملتها إلى كُنْدُر، فدفنتها عند أهله وابنه، وأبوه مات مقتولاً، وكان ألب أرسلان بكرمان، فحمل إليه الرأس، وبعثت أختُه تستقصي عن الرأس، فقيل لها: أُلقي في بئر. و[قال ابن الصابىء]: لمَّا قُتِلَ صَعِد عبد الرزاق ليلاً فغسَّله وكفَّنه بقميص دبيقي كان القائم أعطاه إياه من ملابسه، مع قطعة من بُردة النبي ﷺ، ولفَّه فيها، وأنزله إلى مقبرة البلد فدفنه فيها، وكانت سنُّه نيفاً وأربعين سنة، وكان الذي وضع الحاشية على أن يسيروا بقتله نظامُ الملك، والعجبُ بأنَّ ألب أرسلان ونظام الملك ماتا مقتولَين[٣].

السنة الثامنة والخمسون والأربع مئة

فيها في يوم عاشوراء أغلق أهلُ الكَرْخ دكاكينهم، وعلَّقوا المسوح على ما كانت عادتُهم جاريةً به في القديم، فثار أهلُ تلك المحالِّ، وجاؤوا إلى دار الخليفة واستطالوا، فخرج الأمر[٤] إلى المُعمَّرِ نقيبِ النقباء بإنكار ذلك، فقال: ما علمتُ. وحبس جماعةً أياماً ثم أطلقهم، وقال القائم: هذا شيء قد كان فلا تُعاودوا إليه.

وفيه ورد الخبر أنَّ السلطان انفصل عن مرو إلى خُوارَزم، ومعه تاج الملوك أبو كاليجار هزارسب عاملُ الأهواز، وأنه طُولِبَ بالأموال التي عليه من ضمان البصرة وخوزستان وأَرَّجان منذ وفاة طُغْرُلْبَك مدة ثلاث سنين وهي ألف ألف دينار، فطلب العَوْدَ إلى بلاده ليجمع المال، فقيل: لو أسرعتَ في حمل المال لأسرعنا إلى إطلاقك، فلا بُدَّ من المقام على الباب حتى يُحمل المال، وكان السلطان مُبطناً سوءَ

---

(١) السارقة: الغُلّ. المعجم الوسيط (سرق).

(٢) من الخَلى: هو الحشيش الذي يُحتشُّ من بقول الربيع، وبه سُمِّيت المخلاةُ. اللسان (خلا).

(٣) تنظر مصادر ترجمة محمد بن منصور الكندري في السير ١٨/ ١١٣ .

(٤) في (خ): الأمراء، والمثبت من (ف) و(م) و(م١).